العوامل الخارجية لبناء الفكر في القرآن الكريم من منظور العلامة الطباطبائي

الباحثة زينب مصارع محمد
jantaalmaoa12346@gmail.com
جامعة الاديان والمذاهب ، ايران
د. محمد شيرين كار موحد
قسم علوم القران ، جامعة الاديان والمذاهب ، ايران
د. حمزه علي اسلامي نسب
قسم علوم القران ، جامعة الاديان والمذاهب ، ايران

المقدمة:

ذهب بعضٌ إلى القول بأن الفطرة والعقل والمصالح والعدل هي مصدر الإلزام في الأحكام والقوانين الشرعية ومن خلال دراسة آراء الأصوليين في مجال غير المستقلاّت العقلية ندرك أنهم يذهبون إلى الاعتقاد بأن العقل وحده لا يستطيع الحكم بالإلزام الشرعي للقضايا الفقهية. وتوضيح ذلك: إن الفقيه في استنباط الإلزام في حكمٍ فقهيّ يعمل على تشكيل قياسٍ، يستخرج صغراه من حكم الشارع، وكبراه عبارةٌ عن حكم العقل النظري بإيجاب أمر الشارع للكمال، ثمّ يحكم العقل العملي . من خلال الالتفات إلى حكم العقل النظري . بكون العمل بأمر الشارع إلزامياً:[1]

١. أقيموا الصلاة. الصغرى (حكم الشارع).
٢. إن ما يكون مورداً لأمر الشارع يوجب كمال النفس. الكبرى (حكم العقل النظري).
إذن الصلاة توجب كمال النفس.
١. إن الصلاة توجب كمال النفس. الصغرى (حكم العقل النظري).

[1] محمد تقي مصباح اليزدي، تعليقة على نهاية الحكمة: ٣٩٣، نشر در راه حقّ، قم، ١٤٠٥هـ.

٢. إن ما يوجب كمال النفس يجب القيام به. الكبرى (حكم العقل العملي).

إذن يجب الإتيان بالصلاة.

ومن هنا يبدو أن العقل والفطرة وإنْ كانا يلعبان دَوْراً أساسياً في إدراك الاحتياجات وحقائق الأفعال، ولكنْ لا يمكن الوصول إلى هذه الأمور دون الاستناد إلى الوَحْي والشَّرْع. إن الله سبحانه وتعالى؛ وعلى أساسٍ من علمه ولطفه ونظره إلى المفاسد والمصالح، يضع بعض القوانين التي تضمن السعادة في الدنيا والآخرة، وإن كلّ إنسانٍ يتّصف بالفطرة الطاهرة والسليمة يدرك ضرورة ووجوب التَّبَعيّة لهذه القوانين.[٢]

ذكرنا فيما تقدَّم أن البعض يرى أن المعيار والمنشأ في جميع القِيَم الأخلاقية هو مجرّد المطابقة أو المخالفة للوجدان أو العقل. ولكنْ يبدو أنه لا يمكن اعتبار كلّ واحدٍ من هذه الأمور وحده معياراً مناسباً للإلزامية في القضايا الأخلاقية. ولذلك سوف نعمل في هذا المقال قبل كلّ شيء على نقد ومناقشة هذه المعايير، وفي الختام سوف ننتقل ـ بعد بيان أوجه الانسجام فيما بينها ـ إلى ذكر الرأي المختار.

وقد تقدَّم أن العلماء، ومن بينهم: بعض المفكّرين الإسلاميين قد أبدَوْا اهتماماً ملحوظاً بموقع وأهمّية الوجدان، ولكنْ هل يمكن الادّعاء في الواقع بأننا قد حصلنا على جميع التكاليف الأخلاقية من طريق الرجوع إلى الوجدان؟ وهل يمكن لإدراكاتنا الفطرية أو الوجدانية أن تجيب عن مثل هذا التكليف؟

إن الإجابة عن هذا السؤال مرتبطةٌ بواحدٍ من المسائل المعرفية الهامّة، حيث يكون لحلّها تأثيرٌ مباشر في هذه المسألة، وهي: هل الإنسان يدرك مفهوماً أثناء ولادته؟ وهل خُلقت جِبِلّة الإنسان وطينته منذ بداية وجوده مقرونةً بالمفاهيم الذاتية والفطرية؟ وهل يمكن العثور على إنسانٍ قد حصل على هذه المفاهيم قبل وصوله إلى البلوغ العقلي؟ هناك آراءٌ متفاوتة في هذا الشأن. فقد ذهب أفلاطون إلى الاعتقاد بأن الإنسان يعلم كلّ شيء منذ ولادته؛ فقد سبق له أن تعرَّف قبل

[٢] محمد عبد الله درّاز، دستور الأخلاق في القرآن: ٢١، ترجمه إلى العربية: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٣م.

ولادته على جميع الحقائق في عالم المُثُل، ولكنّه يكون قد نسيها في هذا العالم، وبذلك فإنه يحتاج إلى استذكارها.[٣]

وفي المقابل يذهب آخرون، من أمثال: أبيقور وجون لوك . من الفلاسفة التجريبيين والحسّيين . إلى القول بأن ذهن الإنسان مثل: اللوحة البيضاء، التي تنطبع فيها الأشياء بفعل التماسّ مع الموجودات الخارجية. وقد خالف هؤلاء نظرية الفطرة بشدّةٍ، واعتبروا أدلّتها غير كافيةٍ. كما ذهب الكثير من حكماء المسلمين إلى عدم القول بأن هذه المفاهيم مكنونةٌ في فطرة الإنسان، وإنما هي مسبوقةٌ بالحواسّ الظاهرية والباطنية، وقالوا: من غير الممكن أن تكون لدينا مُدْرَكَاتٌ نعجز عن إدراكها حتّى ما قبل فترة البلوغ العقلي.[٤]

والحقّ هو أن الإنسان عندما يضع قدمه في هذا العالم تكون صفحة قلبه خاليةً، مثل: اللوحة البيضاء، ليس فيها شيءٌ، وهي فارغةٌ من جميع أنواع العلم الحصوليّ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

وفي هذه المقالة سوف نشرع ببيان تأثير العوامل الخارجية على عقل الانسان مع بيانه في القرآن الكريم، ثم نردفه ببيان حقيقة السلامة الاخلاقية وأنواعه وحجيته في المعرفة الدينية عند السيد الطباطبائي وفي النهاية نستخلص النتائج الحاصلة من خلال البحث إن شاء الله.

المبحث الاول

علاقة السلامة الفكرية العقدية في بناء الفكر من منظور العلامة الطباطبائي

لا تقل أهمية السلامة العقدية والفكرية عن السلامة الجسدية والبدنية؛ بل ربما تعود أكثر الأمور الجسدية إلى الأمراض النفسية والعقدية، فالانحراف العقدي أشد وطأ من الانحراف البدني،

[٣] محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٥٥، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧هـ.

[٤] عبد الله جوادي الآملي، فلسفه حقوق بشر (فلسفة حقوق الإنسان): ٥٧، مركز نشر إسراء، قم، ١٣٧٥هـ.ش.،ص١٨٥

فالإنسان وإن تمرض بدنه، ولكن هويته وشخصيته باقية بفكره وعقيدته، ولكن عندما يصاب الإنسان بفكره وعقيدته فلا فائدة من قوة بدنه عندئذ، فلا يسلك سلوكاً مستوياً، ولايقوم بعمل صالحاً، حتى قيل: "أن صحة العمل وفائدته ودوره في تكامل الإنسان منوط بصحة عقيدة العامل، فإن لم تتوفر في الإنسان سلامة عقيدته وكان منكرا لما هو حق أو اعتراه الشك فيه فإن ما يتأتى عن عقيدته من عمل لا يمكن أن يكون سالما أو يجدي نفعا ، ذلك لأن العقيدة هي التي تثير في الإنسان دافعا للعمل ، والدافع هو الذي يوجه العمل ، والدافع والاتجاه كلاهما يحددان مفهوم العمل ومعناه ولياقته وعدم لياقته"[٥]، لأنّ "العقيدة في الإسلام هي المعيار لتقييم الأعمال، وحتى الأعمال الصالحة فإنها تعتبر فاقدة لقيمتها ما لم تنبعث عن عقيدة صحيحة صائبة ! يقول الإمام الباقر (عليه السلام): (لا ينفع مع الشك والجحود عمل)[٧] "[٦] ؛ لأن مؤدى الشك في العقيدة يوجب الكفر كالجحود بها. قال المازندراني: "أن الشاك والجاحد كافران والكافر لا ينفعه عمله"[٨]، أي مع الشك والحجود لا تستقيم عقيدة الفرد، وعندئذ لا يتسقيم فكره، ومثله مثل من مسه طائف من الشيطان، كما جاء في قوله تعالى في تشبيه آكلي الربا بمن مسه الشيطان؛ إذ قال تعالى: "الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"[٩]، قال الطباطبائي: " الخبط هو المشي على غير استواء ، يقال خبط البعير إذا اختل جهة مشيه ، وللانسان في حياته طريق مستقيم لا ينحرف عنه ، فإنه لا محالة ذو أفعال وحركات في طريق حياته بحسب المحيط الذي يعيش فيه ، وهذه الأفعال محفوظة النظام بأحكام اعتقادية عقلائية وضعها ونظمها الانسان ثم طبق عليها أفعاله الانفرادية والاجتماعية ...وهذه الأفعال على هذه الاعتقادات مرتبطة متحدة نحو اتحاد متلائمة غير متناقضة ومجموعها طريق حياته . وانما اهتدى الانسان إلى هذا الطريق المستقيم بقوة مودوعة فيه هي القوة المميزة بين الخير والشر والنافع والضار والحسن والقبيح ... واما الانسان الممسوس وهو الذي اختلت قوته المميزة فهو لا يفرق بين الحسن والقبيح والنافع والضار

[٥] الريشهري، مُحَمَّد، موسوعة العقائد، ج١، ص٢٤.

[٦] ابن بابويه، فقه الإمام الرضا (ع)، ص٢٨٨.

[٧] الريشهري، مُحَمَّد، موسوعة العقائد، ج١، ص٢٤.

[٨] المازندراني، المولى صالح، شرح أصول الكافي، ج١٠، ص١٠٠.

[٩] البقرة: ٢٧٥.

والخير والشر ، فيجري حكم كل مورد فيما يقابله من الموارد ، لكن لا لأنه ناس لمعنى الحسن والقبح وغيرهما فإنه بالآخرة انسان ذو إرادة ".[١٠]

وعليه فالسلامة الفكرية والعقدية لها دور كبير في استقامة الفكر وبنائه، وبدونها لا يمكن أن تتحقق لدينا تنمية فكرية على مختلف المستويات العقلية، وبهذا تظهر أهمية السلامة العقدية والفكرية، كعامل من عوامل بناء الفكر الإنساني.

المبحث الثاني

علاقة السلامة الثقافية العقدية في بناء الفكر من منظور العلامة الطباطبائي

إن المقصود من الثقافة هي ما يمتلكه الإنسان من مجموعة الفنون المهارات والخبرات المتكسبة من تجارب الحياة، ولهذا فهي من تحدد سلوكياته الاجتماعية على أساس ما تمتكله من هذه المجموعة المكتسبة من الخارج، كما لها أثر كبير في صناعه عقلنة الإنسان بناء فكره، لأنها تسهم في تكوين الرؤية الكلية لديه حول الحياة والكون، كما أن لها تأثير على معتقداته وأفكاره من حيث سلامتها وعدمها، وأحيانا تكون عبارة عن موروث التأريخي يتم تناقله عبر الأجيال، بما يعزز لهم الانتماء الاجتماعي وهويتهم الشخصية والعلمية عبر تاريخهم الحافل بالأحدات والمتغيرات، بالإضافة إلى دورها في دفع عجلة التعليم والتعلم لمختلف الفنون والمعارف، من هنا فإنها تعمل على توسيع مدراكاته ومعرفته بالعالم الخارجي، وقد ذكرت للثقافة السليمة التي تسهم في بناء الفكر، تعريفات توضح حقيقتها وأهدافها، وهي من قبيل:

١- الثقافة هي البناء العُلْوي للمجتمع.

٢- يتكون البناء الثقافي من أسس ومظاهر، فالأسس هي القيم الدينية والأخلاق السلوكية، والتشريع والأدب والفن والأعراف .

٣- الثقافة هي نظرة شاملة للكون والحياة والإنسان

٤- الثقافة موقف، وقد يتجسد هذا الموقف في عقيدة، أو تعبير فني، أو مذهب اجتماعي، أو فكري، أو مبادئ تشريعية، أو سلوك عملي.

٥- الثقافة هي الوعي المنظم الذي ينتج عنه تصرفات تطبيقية تحدد وضع الأشياء في مكانها المناسب

[١٠] الطباطبائي، مُحَمَّد حسين الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٤١٠.

٦- الثقافة تعني البحث والتنقيب الهادف إلى الظفر بمعاني الحق والخير والقيام بالقسط في الوسط التربوي والمجتمعي ككل، والسعي إلى تحقيق العدل وإحلال السلام في النفوس أولا، والمجتمع ثانيا، وحمايته ثالثا، ذلك أن الثقافة تهذب النفوس فيتهذب الوجود الإنساني ويتقوم اعوجاجه، حيث يتحول المجتمع الإنساني في مواقفه إيجابيا وبفاعلية انطلاقا من المكونات المعرفية والعقلية والفكرية والعاطفية والسلوكية .

٧- تعني الثقافة في أبسط معانيها جميع السمات الروحية, والمادية, والفكرية, والعاطفية التي تميز مجتمعًا بعينه, أو فئة اجتماعية بعينها, وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة, كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات التي يؤمن بها

ومن هنا كان للثقافة السليمة دور في تعزيز اللحمة الاجتماعية من خلال العمل بموجب مبدأ التعايش السلمي، كما أنها تطلق على وصف بعض الممارسات المعينة لمجموعة فرعية من مجموعات المجتمع، فهي من تحكم هوية الأفراد وتصوراتهم ووعيهم بما يسهم في توجيههم ضمن أطر خاصة ومحددة، ولذا فهي تتقاطع مع التصورات الفردية والاحكام المسبقة للمجتمع، التي تمثل مظاهر الحياة الاجتماعية والفردية.. . [١١]

ويأتي تأثيرها على الفرد من خلال تأثيرها على سلوكياته ممعتقدات وقيمه وتقاليده وعاداته، بحيث تتمكن من التحكم بتكوين شخصيته وهويته الخاصة، وذلك عن طريق تأثيرها على فكره وتصورته، مما يجعله يتفاعل مع محيط الخارجي من خلال التفاعل مع مكوناته ومصاديقها، لأنها تمثل سلوكاً اجتناعياً ومعيارا للموجودات البشرية، بفعل التأثيرات الاجتماعية الناجمة من التعليم واكتساب الفنون والخبرات دون ان تقتصر على لون من ألوان وأطياف محدد، لأنها تختلف باختلاف المعتقدات والتصورات وسلوكيات المجتمع عبر التاريخ البشري، وبهذا تسهم في خلق وايجاد مجتمعات لها الشمولية مع قدرتها في الابداع وقدرة الحياة مع النتغيرات والحوادت الطائرة بفعل الثقافة المادية، وهي للك تشمل المتعيرات التي تحدثها التكنولوجيا والعلوم التجريبية بالاضافة الى العلوم الهندسية والفنون والرياضة ونحوها ، ولكن توجد إلى جنب هذه الثقافة لون آخر من ألوان الثقافة، لها آثار سلبية الفكر والسلوك، من قبيل التأثر بأنماط وسلوكيات غير أخلاقية أو دينية، بل هي منحرفة عن جادة الاستقامة، كالمثيلة، ورفقة أصدقاء السوء ، وممارسة بعض الاعمال المذمومة لدى العقلاء، ونحوها، فمثل هذه الثقافة تؤثر سلبا على استقامة الفكر والسلوك،

[١١] ينظر: موقع الاصلاح نت، (مفهوم الثقافة والمثقف من منظور قرآني)، عبد العزيز العسالي، ٢٢ نيسان، ٢٠٢٠، الرابط: ، تاريخ الزيارة (٢٠/ ٤/ ٢٠٢٤م).

وهو مما يؤدى الى انهدم الفكر وانحرافة عن جادة الصواب، وبالتالي لا يتمكن من تحقيق أهدافة الموجودة في تأمين حياته الطيبة والكريمة في الدنيا والاخرة.)

المبحث الثالث

علاقة السلامة الاخلاقية والمجتمعية العقدية في بناء الفكر من منظور العلامة الطباطبائي

ذكرنا فيما تقدم بأن السلامة الجسدية والنفسية أساس رفاهية الفرد، وهنا يأتي دور الممارسات الأخلاقية التي تمثل العنصر الأساسي لتكوين مجتمع مزدهر، ولكننا لا نعني بذلك أن تكون جميع الممارسات الأخلاقية للمجتمع متفقة على نحو واحد، بل بقدر ما يمكن أن تكون عنصراً فاعلاً ومؤثراً في الحفاظ على القيم والمبادئ الإنسانية وتأصيلها في المجتمع بما يوجب الاحترام المتبادل وحسن الخلق في التعاملات الاجتماعية، فقد جاء في الشريعة الإسلامية ما يؤكد على أهمية حسن الخلق، حتى قال رسول الله (ص) فيه: " ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق" ، وعن أبي جعفر الباقر (ع): " إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ." كافي، ج٢، ص٩٩، ولهذا نجد القرآن الكريم لما كان لحسن الخلق من أهمية ومنزلة رفيعة عند الله تعالى، جعله محل تكريم وتعظيم نبيه الخاتم محمد (ص)؛ إذ لو كان ما هو أفضل منه لذكره، إذ قال تعالى في مدحه وتكريمه: "وإنك لعلى خلق عظيم"، " والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه صلى الله عليه وآله وسلم وتعظمه غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والاغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك " الميزان، ج١٩، ص٣٦٩ وفي نص آخر بين من خلاله علة انجذاب الناس إلى رسول الله تعالى، إذ قال تعالى: "لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"، " ولقد أشير في هذه الآية – قبل أي شئ – إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ألا وهي اللين مع الناس والرحمة بهم ، وخلوه من الفظاظة والخشونة " الامثل، ج٢، ص٧٤٨، وهناك نصوص كثيرة تشير إلى أهمية حسن الخلق ومكانته في الشريعة الإسلامية، لأنه كما قال عنه الرسول (ص): "حسن الخلق خلق الله الأعظم" الطبراني، الأوسط، ج٨، ص١٨٤؛ الجامع الصغير للسيوطي، ج١، ص٥٧٥.، وقد قيل فيوصف حسن الخلق: "حسن الخلق هو : حالة تبعث على حسن معاشرة الناس ، ومجاملتهم

بالبشاشة ، وطيب القول ، ولطف المداراة ، كما عرفه الإمام الصادق عليه السلام حينما سئل عن حده فقال : تلين جناحك ، وتطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن".[١٢]

فهي من تحقق له السمو والرفعة والتكامل والتسامي في مصافي الكمل ممن امتدحتهم الشريعة الإسلامية، والكتب السماوية، حتى قيل عن سلامتها: "ولا بدع فالأخلاق الفاضلة هي التي تحقق في الانسان معاني الانسانية الرفيعة ، وتحيطه بهالة وضاءة من الجمال والكمال ، وشرف النفس والضمير ، وسمو العزة والكرامة ، كما تمسخه الأخلاق الذميمة ، وتحطه إلى سوي الهمج والوحوش . وليس أثر الأخلاق مقصورا على الأفراد فحسب ، بل يسري إلى الأمم والشعوب ، حيث تعكس الأخلاق حياتها وخصائصها ومبلغ رقيها ، أو تخلفها في مضمار الأمم ... وناهيك في عظمة الأخلاق ، أن النبي صلى الله عليه وآله أولاها عناية كبرى ، وجعلها الهدف والغاية من بعثته ورسالته ، فقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١٤]".[١٣]

ومن هنا تظهر لنا أهمية بناء الفكر الإنساني؛ إذ لا يمكن أن يستقيم الفكر الإنساني دون أن تستقيم أخلاقه، حتى أنه جاء في الروايات أنه لا إيمان لمن لا أخلاق له، "فمن لا صبر له لا إيمان له" فالصبر من أهم وابرز الاخلاق التي ينبغي التحلي بها، عن خلق آخر قال الامام علي (ع): " من لا أمانة له لا إيمان له ." وعن خلق آخر قال (ع): "فمن لا رقة له لا إيمان له ومن لا إيمان له شقي" وكثيرة هذه الأحاديث التي جاءت تؤكد على أهمية الاستقامة والسلامة الأخلاقية لعلاقاتها بالاستقامة الفكرية والعقدية المتمثلة بالإيمان وتأصيله في نفس الإنسان المؤمن، وعند فقدان هذا الأمر ينهدم البنيان الفكري والعقدي للإنسان، فعامل الأخلاق عامل أساس في البناء الفكري والتقدم الحضاري.

وللمجتمع عدة مستويات ومكونات تمثلها الإسرة، كأصغر مكون اجتماعي، ثم المحيط البيئي الذي يعيش فيه الإنسان، ثم المؤسسة التعليمية والتربوية، فجميع هذه المكونات الاجتماعية لها أثر في عملية البناء الفكري وشخصية الأفراد وتحديد هويتهم الاجتماعية والعقدية، وهذا ما سيتضح من خلال عرض هذه المكونات الاجتماعية وبيان أثرها وتأثيرها على العملي الفكرية للإنسان، وهي كما يلي:

أ) السلامة الاسرية

[١٢] الصدر، محمد مهدي، أخلاق أهل البيت (ع)، ص١١.

[١٣] البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ج١٠، ص١٩٢.

[١٤] الصدر، محمد مهدي، أخلاق أهل البيت (ع)، ص٦.

تُعد الأسرة اللبنة الأولى في بنيان المجتمع، وأول ما يراه الطفل حيث ما يزال على الفطرة، وبواسطتها ترتسم في ذهنه أولى سطور الحياة، ولهذا فلا غرابة أنْ تكون لها تأثيرات مهمة في حياة الفرد، فهي من تشكّل فكر الطفل في فترة يكون فيها سهل الانقياد؛ وفي هذا يقول الرسول الكريم : "مَا مِن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"[١٥] ثم يتلو قوله تعالى:"فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ "[١٦]. ولهذا كان للاتصال بالمنحرفين ومصاحبتهم له أثر كبير على بناء الفكر وتفكير الإنسان وسلوكياته، وقد شبه النبي (ص) هذا الأمر بنافخ الكير، فإن لم يصبك منه بشيء أصابك بريحه من دخانه[١٧]، ولذا فقد جاء التأكيد بتوصية الآباء بمرقبة أبنائهم وأن لا يختاروا لهم من اصدقاء السوء ولا يسمحوا لهم برفقة السوء، لئلا تسيء أخلاقهم وتربيتهم، من ثم يؤثر ذلك على بنائهم الفكري، إذ يعد ذلك قاعد تستند عليها عملية التنمية الفكرية لدى الإنسان في هذه المحلة من مراحل حياته المهمة" المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " ، كما جاء التأكيد على تربيتهم التربية السليمة على حب الإيمان والاعتقاد بالله تعالى وحسن العقيدة والأخلاق، قال (ص): "أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وقراءة القرآن ، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه"[١٨]، وفي حديث آخر: "علي خير البشر ، فمن أبى فقد كفر . يا معشر الأنصار ، أدبوا أولادكم على حب علي ، فمن أبى فانظروا في شأن أمه"[١٩] فما كان لهذا الأمر من الأهمية والخطورة على مستقبل الابناء، جاء التأكيد عليه بجعله من مسؤولية الأسرة ، وهي مسؤولية عظيم، تتمثل بممارسة عملية التوجيه والإرشاد والتعليم بما يجعل الابن قادر على حسن الاختيار والاستقامة في الفكر والسلوك، وهذا ما يؤكد لنا على أهمية السلامة الأسرية وأثرها في استقامة الفكر وتنميته وبنائه لدى الأبناء؛ إذ لا يقتصر دورها على التغذية المادية لهم؛ وهي بذلك تمثل عاملاً مهما من العوامل الخارجية في بناء الفكر الإنساني.

ب) السلامة التربوية التعليمة

[١٥] البغدادي، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٢، ص٢٣٣؛ البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج٢، ص٩٨؛ ج٦، ص٢٠؛ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ج٦، ص٢٠٣.

[١٦] الروم: ٣٠.

[١٧] السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي دازود، ج٢، ص٤٤٢.

[١٨] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الجامع الصغير، ج١، ص٥١.

[١٩] الصدوق، مُحَمَّد بن علي، الأمالي، ص١٣٦؛ وله أيضاً، علل الشرائع، ج١، ص١٤٢؛ وله أيضاً، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٤٩٢.

تعد المؤسسة التربوية والعلمية المتمثلة بالتعليم المدرسي والجامعي ثاني أهم المؤسسات الاجتماعية، وذلك لأهميتها ووظيفتها الأساسية في القيام بعملية التعليم إلى جانب التربية، فإنها تقوم بتهذيب السلوك وجعله مقبولاً إجتماعيًا، نظرًا لما يتعلمه الفرد من علوم ومعارف ضرورية لعملية التوافق والتطبيع الإجتماعي، والوقاية من الإنحراف بشتى مظاهره.

ولا شكّ أنّ مؤسسات التعليم هي بمثابة همزة الوصل بين الأسرة والمجتمع ككل، الإّ أنّ العلاقة الأسرية تتميز بالعمق والإستمرارية في التأثير على أفرادها، وبهذا تختلف عن المؤسسات التعليمية والتي هي جماعة ثانوية، غير أنّ لها أثرًا كبيرًا في سلوك الفرد، إذ تُعدُّ من أخطر الأجهزة المجتمعية؛ كونها تُغذّي العقل بأفكار وقناعات تُؤثر على الأمن الفكري سلبًا وايجابًا بحسب ما تقوم به من دور تربوي وتعلمي للطلبة.

ومن هذا المنطلق تعد المؤسسات التربوية والتعليمة مسؤولية على الأمن الفكري، ولاسيما أنها تبدأ بالتعليم والتوجيه والإرشاد عن طريق تعريفها لما هو أفضل في عملية البناء والتنمية الفكري لدى الطلبة المتلقين فيها لتلك العلوم والمعارف والتوجيهات والإرشادات التربوية والتعليمية، فلها أثر استراتيجية وفاعل على مسيرة وتوجيه اللبة نحو الفكر السليم، وصيانته من الانحرافات الفكرية، والأفكار الضالة والمنحرفة، فمسؤوليتها لا تقل عن مسؤولية الأسرة في الاعداد والتربية؛ وبالأخص أنها هي من تكون مسؤولة عن البناء الفكري والثقافية عن طريق تغذيتها للعلوم والمعارف التي ينبغي أن تكون سليمة من الانحرافات الفكرية والعقدية، وإن كنا للأسف الشديد نلاحظ غياب الوازع الديني لدي بعض التربويين والتعليميين، إذ لا يهمه استقامة الفكر والعقيدة بقدر ما يهمه أن يتعلم الطالب أي كانت العلوم والمعارف دون النظر والتحقق من سلامتها وآثارها على سلامة فكر الطالبة واستقامته، إذ لا يعد ذلك من جملة مهامه ومسؤولياته التربوية والتعليمية، وهو في الواقع ناجم من فهم مغلوط لمهام ومسؤولية الإنسان التربوي والتعليمي أزاء الفكر والعقيدة واستقامتهما، ولهذا ينبغي على جميع التربويين والتعليميين الابتعاد عن تدريس الأفكار المنحرفة والضالة والمتطرفة، لأنها ستؤدي إلى نتائج سلبية على مستقبل الطلبة والمجتمع، لما تتركه من آثار سلبية توجب الكراهية والنزعات الطائفية والفئوية بين أبناء المجتمع، مما يجعله بؤرة لتنامي الأفكر المتطرفة المؤدي إلى الانحراف والتفكك المجتمعي.

وعليه فيجب على المؤسسات التربوية والتعليمية أن تعمل بوظيفتها بتضمين براممجها بما يحقق الأمن الفكري لغرض تحقيق الوقاية من التطرف والانحراف، وذلك من خلال نشر القيم والمبادئ الإنسانية المعتدلة والافكار المستقيمة، وكل ما يفر للطالبة بيئة سليمة خالية من الشذوذ

والانحراف الفكري والعقدي والأخلاقي، وبما يحقق السلامة الفكرية والاستقرار الاجتماعي بقدر ما تغرس من قيم أخلاقية وأفكار سوية مستقيمة سليمة.

فالمؤسسة التربوية والتعليمة لها أثر كبير في صناعة وتكوين شخصية الطالب وبناء فكره السليم، وتنميته بما يحقق أهدافه من العلمية التعليمة والتربوية، وهو دوراً استكمالياً، من خلا تحصينها لفكر الطالب من آثار المؤثرات الخارجية والتيارات المنحرفة والضالة، إذ ليست وظيفتها فقد أعطاء الدرس وتعليمهم القراءة والكتابة وحفظ النصوص وتحليل العبارات، دون أن يكون لها دور تربوي وتعلمي قائم على أساس تعريفهم بما يجنبهم الافكار والمنحرفة والسلوكيات غير السليمة، فالحضارة لا تعني العلم دون فكر وأخلاق وقيم، إذا اجمعت هذه في الإنسان سلك سلوكا حضارياً مفيداً، فكما أن الأسرة لا يقتصر دورها على أعطاء وتوفير لقمة العيش، كذلك المؤسسة لا يقتصر دورها على تعليم القراءة والكتابة فقط، فالمسؤولية الملقاة على عاتقهم مسؤولية اجتماعية وإنسانية عظيمة، تهدف إلى تحصينهم من الانحراف والضلال الفكري والأخلاقي.

لا شك أنّ الأثر الإيجابي للمؤسسات التعليمية في حماية الأمن الفكري لا يمكن أن يظهر، إلاّ إذا تكاتفت عناصرها، والتي من أهمها: الإدارة الناجحة، والمعلم أو الأستاذ المتميز، والمرشد الفعّال، فضلاً عن ذلك المناهج التعليمية الرصينة والمتجددة، فقد يكون للمعلم قبل غيره ملاحظة بوادر الإنحراف لدى الطالب؛ لذلك يجب توثيق صلة المعلم بطلابه من جهة، وبين المدرسة والأسرة من جهة أخرى، من أجل معالجة تلك البوادر والوقاية من مخاطرها مبكرًا. وفي ضوء ذلك يجب أن تُولي المؤسسة التعليمية إهتمامًا بالطالب؛ كونه محور العملية التعليمية، والهدف منها، ووجوب أن يراعى في تعليمه القيم والمبادئ التي تبني الروح الإنسانية بناءً قويًا. كما أنّ لإدارة المؤسسة التعليمية أثرًا في مواجهة ظاهرة التطرف وحماية الأمن الفكري.

ج) السلامة البيئية المحيطية للمجتمع

تعد الساحة والميدان الأول للمارسات الإنسان لسلوكياته وتطلعاته الفكرية والعقدية، الميحط الذي يعيش في وسطه، وقد يختلف هذا المحيط من مجتمع إلى آخر، فهناك محيط محافظ، وآخر منفتح، وثالث بين المحافظة والانفتاح، وقد لا يجد الإنسان لأفكاره وسلوكياته ميداناً وساحه لاظهارها وأبرازها، للخوف من رد فعل المجتمع والوسط الذي يعيش فيه في حال كونه مخالفا له في الفكر والتوجهات والسلوكيات، ولهذا قد يؤدي المجتمع إلى قتل الطاقات الكامنة في نفس من يريد العمل على إصلاح ما فسد، وتعديل الأعوجاج في مجتمعه وفق الرؤية العقدية السليمة والصحيحة، والقيم الاخلاقية النبيلة، كالذي ابتلي به النبي الأكرم محمد (ص)، إذ ابتلي بمجتمع

جاهلي، تسوده الفوضى وعدم القانون، وانتشار الفاحشة والظلم، والجهل ، والشرك بالله تعالى باعتقاد الوثنية، إذ الغالب في هذا المجتمع كان على ضلال وانحراف سوى مجموعة قليلة التزمت بدين التوحيد، واجتنبت الرذيلة، والظلم ، ولكن هذا لا يعطي الفرصة الكاملة لنشر دعوته دون معارضة شديد من قبل المخالفين لدعوة التوحيد وإراد الاصلاح والقيم الإخلاقية النبيلة، ولذا اضطره إلى تركه بالهجرة إلى مجتمع وبيئة وميدان عمل يستطيع من خلاله علمية النباء الفكري وتنمية القيم إتمام مكارم الأخلاق التي بعث بها (ص)، فما أحوجنا في هذا العصر إلى من لديه قدرة على الاصلاح والتغيير في مجتمعاتنا التي باتت تقهقر إلى الوراء بدل التقدم والبناء، ولاسيما على المستوى الفكري والعقدي والثقافي الحضاري، إذ أصبح الرواج للأفكار المنحرفة والعقائد الفاسد، والاصطفاف في صف القيم والأخلاق الفاسدة، والدعوة إلى حمايتها مؤازرتها لى الرغم من معرفة الجميع بنتئجها وآثار الوخيمة على مستقبل المجتمع وابنائه، في ظل تقدم علمي وتكنولوجي كان بالإمكان الاستفادة منه في عملية البناء الفكري السليم، غير أن أبناء المجتمع ونتيجة تأثرهم بثقافات غربية بغيض للإنسانية والإسلام وأفكار عقدية منحرفة بعيدة كل البعد عن الاستقامة والصلاح، بسبب ما يبث وينشر عبر وسائل الاتصال العالمية التي جعلت من العالم الثالث قرية صغيرة، فالمجتمع أصبح اليوم عقبة كؤدة أمام دعاة الاصلاح والتغيير، حتى بات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سُبة في نظر هؤلاء، وأن الداعية بهما والعمال على وفقها خارج من جادة الصواب، كما أخبر النبي (ص)، فقد جاء عن مسعدة بن صدقة ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : قال النبي (صلى الله عليه وآله) : كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ، فقيل له : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ فقال نعم وشر من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، فقيل له : يا رسول الله ويكون ذلك ؟ قال : نعم ، وشر من ذلك ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ".[٢٠]

الخاتمة

فلقد شغلت المسألة الاجتماعية حيزاً كبيراً – في فكر الشهيد الطباطبائي بوصفها المسألة التي تفتح على الإنسان أبواباً عديدة من الآلام والجراحات. وألواناً متعددة ومعقدة من الحلول والمعالجات التي تأخذ شكل النظريات والمذاهب والاتجاهات. وبوصفها المسألة التي تمس الحياة الإنسانية ومصيرها مساً صميمياً مباشراً فأبدع في استيعابها وعرضها ومعالجتها إبداعاً قل نظيره.

20 الكليني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي، ج٥، ص٥٩؛ الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، ص٥٠؛ الحميري، قرب الإسناد، ص٥٥.

تطلق لفظة مشكلة اجتماعية ويقصد بها معاني مختلفة فتفشي الظلم في المجتمع يمثل مشكلة اجتماعية. وكذلك بالنسبة إلى الانحلال الخلقي وانهيار القيم المعنوية وانتشار الجهل وغير ذلك من الحالات السلبية التي يعاني منها المجتمع. فكل منها يمثل مشكلة اجتماعية[٢١] غير إن عندما يطلق هذه اللفظة في مصنفاته لا يقصد أياً من هذه المعاني الجزئية. وإنما يقصد بها معنى آخر اشمل وأعمق. وهو المعنى الذي يتناول العوامل التي تكدر صفو الحياة الاجتماعية للإنسان وتجعلها مليئة بالإشراك والعقبات. والأخرى التي تنفي جو الحياة الاجتماعية وتجعله رحباً خالياً من الأكدار والتعاسة أي المعنى الذي يتناول الكيفية التي يجب أن يبني عليها المجتمع الإنساني ليكون مجتمعاً سعيداً وهو ما يعبر عنه بمشكلة النظام الاجتماعي الأصلح. لأن المشكلة الاجتماعية الأصيلة للإنسانية على مر التأريخ لا تتمثل بالظلم بما هو ظلم ولا بالانحلال الخلقي بما هو انحلال خلقي ولا بأمثال ذلك مما يمثل معاني جزئية مفردة. وإنما المشكلة هي مشكلة النظام الاجتماعي – بما هو نظام كلي شامل للحياة الإنسانية – الذي يفرز هذه المعاني ويزود بها الساحة الاجتماعية فتكون مليئة بالظلم والانحلال.. الخ.

و ان هدف الرئيسي للطباطبائي هو تأسيس فلسفة اسلامية معاصرة ، نرى فيها جوهر الحقيقة بعد ما كان هذا الجوهر متعرض للنقد والتشويه من قبل المؤلفين والباحثين الغربيين الذين يذمون الفلسفة الاسلامية بأشد الحقد والانكار وان الطباطبائي كان له القدرة الفذة لتصحيح المسارات والمفاهيم الفلسفية ، مثال انه يسعى الى تجديد وتغيير هذه الاراء ، وهذا يدل على ان لديه القدرة العلمية العميقة والواسعة في الفلسفة ، اي ان الطباطبائي لم يكن فقط مرجعاً دينياً بل كان فيسوفاً عالماً كتب في جميع المجالات المعرفية ، كتب في الفلسفة والمنطق والاقتصاد والسياسة .... الخ .

قائمة المصادر

١. نظام الحكم والادارة في الاسلام ، شمس الدين ، محمد مهدي ، دار الثقافة لطباعة والنشر ، ايران ، قم ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م

٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج٥، ص٥٩؛ الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، ص٥٠؛ الحميري، قرب الإسناد

[21] نظام الحكم والادارة في الاسلام ، شمس الدين ، محمد مهدي ، دار الثقافة لطباعة والنشر ، ايران ، قم ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م ،ص١١٨.

٣. الصدر، محمد مهدي، أخلاق أهل البيت (ع)
٤. السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي دازود، ج٢
٥. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، ج١٠
٦. ينظر: موقع الاصلاح نت، (مفهوم الثقافة والمثقف من منظور قرآني)، عبد العزيز العسالي، ٢٢ نيسان، ٢٠٢٠، الرابط: ، تاريخ الزيارة (٢٠/ ٤/ ٢٠٢٤م).
٧. المازندراني، المولى صالح، شرح أصول الكافي، ج١٠
٨. ابن بابويه، فقه الإمام الرضا (ع)
٩. الريشهري، محمد، موسوعة العقائد، ج١
١٠. عبد الله جوادي الآملي، فلسفه حقوق بشر (فلسفة حقوق الإنسان): مركز نشر إسراء، قم، ١٣٧٥هـ.ش.
١١. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ١٣: ٥٥، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٧هـ.
١٢. محمد عبد الله درّاز، دستور الأخلاق في القرآن: ٢١، ترجمه إلى العربية: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٣م.
١٣. محمد تقي مصباح اليزدي، تعليقة على نهاية الحكمة: ٣٩٣، نشر در راه حقّ، قم، ١٤٠٥هـ.